أي أنه يتكلم بثقة مستوحاة من العبارة الصهيونية (فلسطين أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض)، المقتبسة عن اللورد البريطاني ميتفورد عام ١٨٣٩م (هناك أرض بلا شعب والله يوجهنا بحكمته ورحمته نحو شعب بلا وطن). وما كتبه ١٨٤٥م داعياً الشعب اليهودي للترابط مع السياسة البريطانية من أجل إعادة إنشاء كيان لليهود في فلسطين تحت وصاية بريطانيا وذلك لإعادة قوة بريطانيا في الشرق وتأمين خط مواصلاتها إلى الهند). وهذا ينسجم تماماً مع ما كتبه وزير خارجية بريطانيا بالمرستون عام ١٨٤٠م بعد هزيمة مشروع محمد علي الوحدوي «ليس في مصلحة بريطانيا قيام ملك عربي قوي... يتعين إقامة قاعدة يهودية في فلسطين») وما كان قد تعهد به هرتزل في أواخر القرن التاسع عشر وشرحه في رسائله لعائلة روتشليد في كتابه (الدولة اليهودية) ١٨٩٥م (بأن الحضارة الأوروبية بحاجة لمتراس متقدم ضد البربرية) وما قاله القائد الصهيوني نوردو (تريدوننا حراساً على قناة السويس. إننا نقبل ولكن أعطونا الإمكانات).

وقد تطلب الأمر أيضاً استدعاء التراث الديني وتوظيفه (فالعودة اليهودية لفلسطين اقتضت استدعاء التراث التوراتي اليهودي من طراز (هيئوا أنفسكم لتتملكوا الأرض التي أعطاها الرب لكم) سفر يشوع و(على أنهار بابل جلسنا وبكينا صهيون. إن نسيتك يا أورشاليم تنساني يميني وليلتصق لساني في حلقي) سفر المزامير. والتمهيد لذلك بدعوة الحاخام البولندي كاليشر (لإقامة مستعمرات زراعية)، وحاخام يوغسلافيا قلعي الذي سعى لتأسيس جمعية يهودية، والطبيب الروسي بنكسر الذي قال بخصوصية اليهود الثقافية وضرورة إيجاد قطعة أرض لهم لخلق قومية يهودية)[٩٣].

كل ذلك قبل هرتزل بعقد أو عقدين وأكثر. أما الذي حظي بمكانة أكبر وله تأثير فاق الجميع فهو الألماني هيس الذي أصدر كتابه (روما والقدس عام ١٨٦٢م، الذي اعتقد أنه ممكن إغراء السلطان العثماني بالمال، أما رسائله الاثنتا عشرة في كتابه فهي تبشير بضرورة قيام حركة يهودية قومية للاستيطان في فلسطين، هاتفاً تقدموا أن أرض أجدادكم تناديكم. سيرتجف الشرق لدى قدومكم. وهو يطلق على اليهود الشعب الممتاز ويقول إن اليهود وحدهم قادرون على السمو، أما اليهودية فهي أساس الحضارات والأديان. ويضيف في الرسالة السادسة: إن اليهود يمتلكون بوحي من روح الله، موهبة مميزة في الرؤى الاجتماعية... ولا يخفي نظرته التحقيرية للعرب بمخاطبة اليهود (أنتم يجب أن تكونوا حملة الحضارة للشعوب البدائية في آسيا وأساتذة العلوم الأوروبية

---

٩٣) قطامش، محاضرة بدايات المشروع الصهيوني. مركز منيف آب/٢٠٠٣. ص٤